الموشـــح

للأستاذ توفيق الضوى

لقد كان الشعر فى أول أمره سجعاً غير مقيد بالقوافى الموحدة ؛ إنما كان قطعاً قطعاً وشذوراً شذوراً كل اثنتين منها أو أكثر على قافية واحدة ، ثم توحدت القوافى فى بعض الأوزان الشعرية انطلاقا مع الأفكار والمحاكاة ، عدا الأراجيز التى بقيت مختلفة القوافى فسهل النظم عليها فى القواعد والضوابط التى هى من القيود المتينة ، ثم لما كثرت الأغراض وضاقت قوافى الشعر عن استيعابها عدل الأندلسيون إلى التفنن فيها فأوجدوا الموشحات غير متقيدين بالقوافى الواحدة ، بل تفننوا فيها بمظاهر مختلفة ذهابا مع الأفكار وهياما فى سماء الخيال . على أن للقريحة والذوق وللحس والخيال تأثيرا كبيرا على الشعر وتجديده وابتكار معانيه والتصرف فى قوافيه والتلاعب بأوزانه فوق ما لتأثير السلالة والاقليم والعمران وما يتعلق بها ، فلهذا كان الفرق بين الشعر العربى والأعجمى عند الأمم ، وبين الغربى والشرقى عند العرب . ومن المعلوم أن فنون الشعر سبعة : هى القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والمواليا ، والزجل ، والكان وكان ، والقوما . وقيل إن الحماق منها أيضاً فتكون ثمانية . وثلاثة من فنون الشعر هذه معربة ولا يغتفر اللحن فيها ، وهى القريض والموشح والدوبيت ؛ وثلاثة ملحونة دائما وهى الزجل وكان وكان والقوما . وأما المواليا فيحتمل الاعراب واللحن . والآن نتكلم عن الموشح الذى هو مدار بحثنا ...

فالموشح فن من فنون الشعر الرائعة التى توسع فيها شعراء الاندلس اطلاقا لبنات أفكارهم فى سماء الخيال فأجادوا ماشاءت بلاغتهم وعنايتهم فى اظهار المنظومات فى قالب جديد مطبوعة على غرار جميل مطرزة بوشى لطيف حتى تفوقوا على غيرهم بهذا التصرف البديع الذى اقتبسه عنهم المغاربة فالمصريون فالسوريون فالعراقيون ؛ وعم عالم الشعر العربى الذى زاده التوشيح محاكاة فوق محاكاة أوزانه المطربة ، فكانت الموشحات موسيقى الشعر التى تضرب على أوتار القلوب ، فتناولها الشعراء بمنتهى الاقبال والتكريم وتبارزوا فى الاجادة فى فنونها هائمين فى سهولها وضروبها ، راشفين من صافى معينها ، واصفين مظاهر الطبيعة والعالم على اختلاف شؤونها . فالاندلس أم الموشحات ، وصفاء أذهان شعرائها رأس هذه الاختراعات ... وهذا ما قاله صفوان المرسى الاندلسى يصف تأثير مناظر الاندلس فى شعرائها حتى أحسنوا النظم والنثر متفوقين فيهما على غيرهم

هنالك بين الغصن والقطر والصبا
وزهر الربى والتدت، آدابى الشعرا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطرى
تعلم نظام النثر من ههنا شعرا
وإن نثرت ريح الصبا زهر الربى
تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا
فوائد أسمار هناك اقتبستها
ولم أر روضا غيره يقرى السحرا
كأن هزيز الريح يمدح روضها
فيملأ فاها من أزاهره درا

قال ابن خلدون فى الموشح : لما كثر الشعر فى الأندلس وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه الموشح ينظمونه اسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوراقها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبياب . ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد . وتجاروا فى ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه .

قال أبو عبد الله محمد الأزرق الأندلسى فى مدح موشحه ذاهبا إلى القصيدة :

بعثت بها عذراء رائعة الحلى قضت أنها للمعلمات مرشحة
توشحت اللفظ البديع وأقبلت فها هي تبدو للعيون موشحة

ووصفها ابن دحية الأندلسى بقوله :

الموشحات هى زبدة الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته . وهى من الفنون التى أغرب بها أهل المغرب على أهل

المشرق ، وظهر وافيها ظهور الشمس الطالعة والضياء المشرق ...

وقال ابن معصوم في سلافة العصر : ولأهل اليمن أيضاً نظم يسمونه الموشح غير موشح أهل المغرب ؛ والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يراعى فيه الاعراب ، وإن وقع اللحن في بعض الموشحات التي هي على طريقتهم لكون ناظمه جاهلا بالعربية فلا عبرة به ، بخلاف موشح أهل اليمن فانه لا يراعى فيه شيء من الاعراب بل اللحن فيه أعذب ، وحكمه في ذلك حكم الزجل

وللموشحات اصطلاحات لا بد منها ، مثل اللازمة ، والمبدأ ، والدور ، والدرج ، والبطايحي ، والمجنح ، والخرجة ، والسلسلة ، والقفلة ، والانصراف ، والمجنب الخ

وأول من اخترع الموشحات في شبه جزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري ، والفريري نسبة إلى فريرة وهو حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة ؛ وقد يكون جده منسوباً إلى فرير وهي قرية بين جيحون وبخارى في بلاد العجم ، أو بلدة بخراسان كما ذكر السمعاني في أنسابه وياقوت الرومي في معجم البلدان . وهو من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٣ هـ ، ٨٨٦ م) وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد ربه مؤلف العقد الفريد . وجاء بعدهما كثير من الشعراء فتفننوا في الموشحات حتى فاقوا من سبقهم فاشتهرت موشحاتهم ، وأشهرهم عبادة القزاز وغيرهم . وانتقل بعد ذلك الموشح من الأندلس إلى المغرب ، ومن هذه إلى مصر ، ومنها اتصلت بسورية فالعراق ، وذلك في العصر العباسي الرابع وفي أثناء القرن السادس للهجرة ...

قال الزبيدي في معجم تاج العروس : التوشيح اسم لنوع من الشعر استحدثه الأندلسيون ، وهو فن عجيب له أسماط وغصون وأعاريض مختلفة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات . وقال أيضاً : الوشاح بالضم والكسر رسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، تتوشح المرأة به ، ومنه اشتق توشح الرجل بثوبه ، وقال غيره أخذ التوشح من الظبية الموشحة وهي التي في جنبها طرتان

قال القيراطي موجهاً بالزجل والموشح ذاهباً إلى الشعر :

أرتاح للأقمار وهي طوالع ... وشموس راحي للمغارب تجنح

ويهزني زجل الطيور بلحنها ... والروض بالزهر النظيم موشح

وباختراع فن الموشح كان له الأثر العظيم في الشعر الأوربي ، فحاكى شعراؤهم هذه الأوزان والأشكال كما نرى في منظوماتهم ، ولاسيما قصائد فكتور هوجو شاعر فرنسا في ديوانه المسمى بالشرقيات ، وكذلك قصائد غوته الشاعر الالماني وغيرهما من شعراء بقية الأمم الأوربية التي وقفت على أشعار عرب الاندلس وموشحاتهم الخالدة ، فكانت القافية عندهم لا تلتزم في أكثر من بيتين كالأراجيز عندنا ، أو أنها تلتزم في أبيات وتتغير وتعود إلى اللازمة كما في الموشحات ؛ ومنها نوع من الشعر يسمونه الأبيض وهو ما كان غير مقفى كشعر شكسبير شاعر الانكليز وغيره ...

قال أبو الوليد بن رشد الأندلسي في تلخيص كتاب أرسطو في الشعر ما نصه : والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص ، والمحاكاة في اللفظ : أعني الأقاويل المخيلة غير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت الأمرين جميعاً ؛ فالصناعة المخيلة أو التي تفعل فعل التخييل ، ثلاثة ... صناعة اللحن ، والوزن ، وعمل الأقاويل المحاكية . ومن أبدع فنون الموشحات كتاب المديحات لعبد المنعم عمر بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني الفه سنة ٥٦٩ هـ ويوجد في المكتبة الخالدية في القدس الشريف ، وكتاب جيش التوشح للسان الدين بن الخطيب ، وعقود اللآل في الموشحات والأزجال ، لشمس الدين النواحي ، ردار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك ، والدر المكنون في سبعة فنون لمحمد احمد بن إياس الحنفي ، وحاوي الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان وغيرها من المؤلفات القديمة القيمة . هذه كلمة موجزة عن تاريخ الموشح وعمله كتبتها خدمة لهواة الشعر والموسيقى ليكونوا على علم باصول الموشح وتاريخه لارتباطه الوثيق بفن الموسيقى والغناء

(اسكندرية)

توفيق الهموي
أستاذ في الموسيقى